

## الدرس الصوتي العربي

نشأة وتطورا إلى القرن الخامس الهجري

The Arabic phonetics lesson

The origins and evolution to the fifth century AH

أ.د. فوزية سرير عبد الله

جامعة البليدة 2

[serierfouzia@yahoo.com](mailto:serierfouzia@yahoo.com)

تاريخ القبول: 2020/09/07

تاريخ الإرسال: 2020/09/01

الملخص:

ظهر مصطلح علم الأصوات عند العرب في القرن الرابع للهجرة للدلالة على فرع علمي مستقل يهتم بدراسة الأصوات، وقد مرّ هذا العلم بمراحل وإرهاصات سبقت هذا الظهور بدءا من منتصف القرن الثاني للهجرة، وقد كان له أصلان انبثق منهما هما اللغة ومعارفها، والقراءات القرآنية ووجوهها الصوتية.

لكن ما أهم المراحل التي مرّ بها هذا العلم في نشأته؟

للإجابة عن السؤال أنجزنا هذا البحث الذي سوف نتعرف فيه على مسيرة علم الأصوات عند العرب قديما بدءا بأوليات البحث الصوتي إلى القرن الخامس للهجرة.

الكلمات المفتاحية: نقط الإعراب، نقط الإعجام، التقلبات، الإدغام.

Summary:

The term phonetics appeared in the Arabs in the fourth century of migration to denote the independent scientific branch; what is interested in studying sounds. Preceding this appearance from the middle of the second century of migration this science has passed through stages, it has had two roots grew out of them are the language and it knowledge, and reading the Quran and his voice faces.

But what are the most important stages undergone by this science in its evolution?

To answer this question we achieved this research to define the stages of phonetics when Arabs starting phonetics search to the fifth century of migration.

#### Keywords:

Expressing points, grammar points, Altklibat,al-idgham

#### تمهيد:

#### أوليات الدرس الصوتي العربي:

ظهرت العلوم اللغوية عند العرب على اختلاف فروعها تحت دوافع في مقدمتها محاولة فهم أي القرآن الكريم، ولكن هذا الفهم لا يستقيم ما لم تكن اللغة المستخدمة واضحة سليمة نطقا وتركيبا بدءا بالخصائص المميّزة لأصواتها (المخرج والصفة)، فاحترام قواعد ترتيب الأصوات التي تنتج كلمات دالة، ثم التركيب بين هذه الكلمات، ومهتم بدراسة المرحلة الأولى علم اصطلح على تسميته (علم الأصوات) (phonetics)، وقد ظهر هذا العلم تطبيقيا مستقلا عن العلوم اللغوية عند القراء ومجيدي القرآن الكريم، ثم تناوله المعجميون والنحاة واللغويون كالخليل بن أحمد (ت 175هـ) في (العين)، وسيبويه (ت 180هـ) في (الكتاب)، وبعض النقاد (كالجاحظ) (ت 255هـ) في بعض أبواب (البيان والتبيين)، ودارسو الإعجاز القرآني كالرمانى في (النكت في إعجاز القرآن) (ت 386 هـ) ، والعلماء الفلاسفة والأطباء كابن سينا (ت 428هـ) في (رسالة في أسباب حدوث الحروف)، وكتاب (الموسيقى

الكبير) وبعض الأبواب في مؤلفاته الطبية ك(الشفاء)... فالدرس الصوتي عند العرب من أصل الجوانب التي درسوا فيها المستوى الصوتي، وأقربها إلى المنهج العلمي، ممّا دفع "فيرث" إلى القول: "لقد نشأت الدراسات الصوتية ونمت في أحضان لغتين مقدستين: العربية والسنسكريتية"<sup>2</sup>، وعليه فالدراسات اللغوية عند العرب نشأت قديماً في ظلّ التحوّل الفكري والحضاري الذي أحدثه الدين الجديد وكتابه القرآن الكريم في شبه جزيرة العرب، شعورا منهم بالإعجاز البياني واللغوي تركيباً ودلالة بالرغم من أنّهم تفوّقوا في الفصاحة والبيان على غيرهم، هؤلاء الذين وجدوا صعوبة في تعلّم العربية عندما اضطرتهم الحال إلى استخدامها، وهنا بدأ التفكير في إيجاد نسق ترميزي للغة العربية من ناحية، والتفكير في وضع معايير تكفل النطق السليم من ناحية أخرى، حدث هذا في الفترة التي نطلق عليها مرحلة التأسيس للدرس الصوتي، فما هي يا ترى مميزات هذه المرحلة؟

#### 1- مرحلة التأسيس للدرس الصوتي:

تمثّل هذه المرحلة بعض الأعمال الرائدة منها "نقط الإعراب ونقط الإعجام"، وقد كان المخترع الأول لنقط الإعراب أبا الأسود الدؤلي (ت69هـ)، وتتلخّص الطريقة التي اختارها لإعراب القرآن في وضع نقط على أحرفه بلون يخالف مداد المصحف، وقد وضع في البداية ثلاث علامات لثلاث حركات هي نقطة فوق الحرف دلالة على الفتحة، ونقطة إلى جانب الحرف للضمّة أما الكسرة فقد دلّت عليها نقطة أسفل الحرف، وجعل للتونين نقطتين متجاورتين أعلى الحرف، وما نستنتجه من قول (أبي الأسود الدؤلي) (ت69هـ) لكتابه الذي اختاره من أفصح القبائل العربية وهي قبيلة (عبد القيس): خُذ المصحف وصبغاً يخالف لون المداد فإذا فتحت شفتي فانقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتها فانقط بين يدي الحرف، وإذا كسرتهما فاجعل النقطة في أسفله، فإذا أتبعته شيئاً من هذه الحركات غنّ الحرف فانقط نقطتين.<sup>3</sup> أنّ الملاحظة الذاتية لأعضاء النطق هي الأساس الذي قام عليه عمل أبي الأسود المرتكز على الصوت.

تلت هذه الخطوة الأولى لنقط الإعراب التي سبق إليها (أبو الأسود) غيره، خطوة ثانية تمّ من خلالها التمييز بين الأحرف المتشابهة في الرسم أطلق عليها مصطلح "نقط الإعجام" ورائدها هو (نصر بن عاصم) (ت89هـ) على الأرجح، إذ يشير بعضهم إلى (يعي بن يعمر) الذي قد يكون شارك نصر في هذا الاختراع.

وقد أجرى (الخليل بن أحمد) على نقط (أبي الأسود) تعديلات: "إذ جعل الضمة واوا صغيرة تكتب فوق الحرف، والفتحة ألفا صغيرة مبطوحة فوق الحرف، والكسرة ياء صغيرة تكتب تحت الحرف، فهذه الحركات القصيرة الثلاث مأخوذة من صور حروف المدّ الثلاث، ثم جعل للشدة علامة رأس الشين، وللسكون علامة رأس الخاء، وعلامة للمدّ وعلامة للروم والإشمام... وقد زاد على هذه العلامات من التحسين ما جعلها على حالتها الي نراها عليها<sup>4</sup>.

كانت هذه الإرهاصات الأولية لعلم الأصوات عند العرب الذي تتالت الأبحاث فيه فكانت المدرسة المعجمية هي أول مدرسة صوتية عند العرب وهي المدرسة التي سنبدسط الحديث عنها فيما يأتي.

## 2-المدرسة الصوتية المعجمية:

استعان مؤلفو المعاجم بعلم الأصوات، وهؤلاء يمثلون صنفين اثنين، الأول منهم رتب معجمه ترتيباً صوتياً بحسب مخارج الأصوات، مع طرحه لبعض المسائل الصوتية منها مخارج الأصوات وصفاتها، وبعض مظاهر التغيّر الصوتي التي تطرأ على الكلمات، من ذلك (الخليل بن أحمد) في (كتاب العين)، و(أبو علي القالي) (ت356هـ) في كتاب (البارع)، و(الأزهري) (ت370هـ) في (تهذيب اللغة).

لقد كان (معجم العين) (للخليل بن أحمد) أول مؤلف يصنّف في مقدمة المصادر التي حوت دراسات في أصوات العربية، أبداع في هذا الكتاب الذي ربّبه حسب مخارج أصوات العربية من الحلق إلى الشفتين، حيث وجد أنّ أول مخرج هو الذي تصدر منه الأصوات (أ - ء - هـ) ثم يليه (ح - ع) فلم يشأ أن يستهله بالمجموعة الأولى لأنّها يدخلها التغيير والحذف، أما الهاء فهي مهتوتة ضعيفة واختار العين لأنه صوت قويّ يمتاز بنصاعة تميّزه عمّا سواه من الحروف)، وهكذا ربّب الأصوات حسب الأحياز، "فقد قام منهج تأليف العين على نظرية صوتية وضعها الخليل وهي الأخذ بالمخرج الصوتي لترتيب الحروف في المعجم ترتيباً يبدأ من الحروف التي تخرج من الحلق ثمّ تقدّم شيئاً فشيئاً حتى انتهى بالحروف التي تخرج من الشفة، ثمّ بعد ذلك حروف العلة ثمّ الهمزة"<sup>5</sup>، ومن جملة المسائل الصوتية التي احتواها هذا الكتاب تصنيف الأصوات إلى أصوات ساكنة يبلغ عددها خمسة وعشرين صوتاً، وأخرى جوفية هي (الواو والألف والهمزة) والتي لا مخرج لها<sup>6</sup>.

وكان من بين الملامح الصوتية التي أشار إليها (الخليل) في معجمه والتي استطاع نتيجة ذكائه وعلمه، وأذنه الموسيقية للمّاحة إدراكها العلاقة بين الحركات القصار والحركات الطوال، هذه العلاقة القائمة على الكمّ لا الكيف وهو ما استنتجناه من رمزه "للفتحة ألفا صغيرة، مضطجة فوق الحرف، وللكسرة ياء صغيرة تحت الحرف، وللضمة واوا صغيرة فوقه".

واستطاع "أيضاً انطلاقاً من تفكيره الصوتي، وتدوّقه الأصوات، واهتماماته الصوتية التي مكّنته من تعقيد بحور الشعر والأوزان العروضية والاختلافات الصوتية الدقيقة جدّاً - والقوية- أن يضع علامات صوتية عدّة، منها: الشدّة والسكون وهمزة القطع وهمزة الوصل"<sup>7</sup>.

وكان ممّا قدّمه تلك الملاحظة الدقيقة التي تنبئ عن معرفة واسعة بأسرار اللغة العربية، بحيث أشار بأنّ هناك ميزاناً تعرف به الكلمات العربية من تلك الدخيلة، وذلك أنّه من

النادر أن تجد كلمة عربية رباعية أو خماسية لا تحوي صوتا من أصوات الذلاقة والمتمثلة في: (مر بنفل) وهو القائل: "فإن وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معرأة من حروف الذلق أو الشفوية، ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد أو اثنان أو فوق ذلك، فاعلم أنّ تلك الكلمة محدثة مبتدعة، ليست من كلام العرب، لأنك لست واجدا من يسمع من كلام العرب بكلمة واحدة رباعية أو خماسية إلا وفيها من حروف الذلق أو الشفوية واحد أو اثنان أو أكثر".<sup>8</sup>

ومما جاء به (الخليل) في معجمه أيضا ذلك النظام الذي يعرف بنظام التقليلات<sup>9</sup> والذي نحصل من خلاله على صيغ مختلفة للفظ الواحد عن طريق تقليب حروفه، ف(كتب) مثلا يأتي منها كبت، تبك، بتك، تكب، بتك، وبكت وقد طبّق هذا مع كلّ الأبنية، ومن خلال هذه الطريقة توصل إلى إحصاء المستعمل والمهمل في اللغة العربية، فكان هذا أهم ما توصل إليه (الخليل) في علم الأصوات وبه تمكّن من حصر المعجم العربي بأبعاده الصوتية فضلا عن وصفه أصوات اللغة منفردة ومجمعة منضمة إلى سواها، وهو ما فصل القول فيه النحاة بعده.

### 3-مدرسة النحاة الصوتية:

عالج النحاة المسائل الصوتية في أواخر مؤلفاتهم في باب منفرد اصطلاحوا على تسميته "باب الإدغام"، منهم (سيبويه) في (الكتاب) و(المبرد) (ت285هـ) في (المقتضب)، و(ابن السراج) (ت316) في (الأصول في النحو)، ثم تتالت المصنّفات النحوية وتتابع منها شروح كتاب سيبويه التي حوت هي الأخرى أبوابا تصنّف ضمن البحث الصوتي الذي تداخلت مسائله عند بعض المتأخرين بالصرف (نحو ما نجده في الشافية لابن الحاجب ت1415هـ وشرحها للاسترابادي).

لقد كان في طليعة النحويين (سيبويه) وهو تلميذ (الخليل) ورث عنه الجمّ الغزير، فقدّم دراسة للأصوات أوفى من دراسة أستاذه، وأكثر دقّة، حيث صنّف الأصوات من خلال ثنائية

(المخارج والصفات) منتقلا إلى النظر في وضع الأوتار الصوتية، ممّا سمّاه بالجهر والهمس<sup>10</sup>، ثم عرض التغيّرات التي تصيب الأصوات عند تألفها وتركيّبها في السياق اللغوي<sup>11</sup>، فدرس ظاهرة الإدغام، والإعلال، والإبدال...لقد اعتمد (سيبويه) منهجا قائما على التجربة الذاتية معتمدا على المشاهدة والاستقراء، والوصف الدقيق للحروف "فذكره لصفات الأصوات المفردة منها والتي الجهر والهمس والشدة والرخاوة والتوسط، وكشفه لملامح الإطباق واللين، وتمييزه لمظاهر الاستطالة والمدّ والتفسيّ، كلّ أولئك ممّا يتوج صوتيته بالأصالة"<sup>12</sup>، حتى بالنسبة للصوت المركّب فإنّ جهود (سيبويه) كثيرة لا تكاد تحصى<sup>13</sup>، له "قدم سبق مشهود .. في قضايا الإدغام، وهي معالم صوتية في الصميم، فقد قدّم لها بدراسة علم الأصوات، كما قدّم الخليل معجمه بعلم الأصوات، فالخليل قد ربط بين اللغة والصوت، وسيبويه قد ربط بين قضايا الصوت نفسها، لأنّ الإدغام قضية صوتية"<sup>14</sup>.

وبناء على ما نلاحظه نقول بأنّ منهج سيبويه نابع من منهج أستاذه الخليل، وبهذه الجهود المتواصلة بلغ الفكر العربي في مجال الدراسة الصوتية منذ القرن الثاني للهجرة درجة عظيمة من الرقي.

#### 4-مدرسة علماء البلاغة والإعجاز والنقد:

نجد في طليعة هؤلاء (الجاحظ)(ت225هـ) في (البيان والتبيين)، و(الرماني) (ت386هـ) في (النكت في إعجاز القرآن) والذين اضطرتهم الحال في كثير من الأحيان إلى عرض بعض المسائل الصوتية في مؤلفاتهم، وكانت مباحثهم طبقا لتوجّه علم المعاني، وتزاحم الأصوات في قبول ذاتقتها النطقية أو السمعية ورفضها، من خلال: تنافر الحروف، وتلاؤم الأصوات<sup>15</sup>، التعقيد اللفظي، التعقيد المعنوي، فصاحة اللفظ المفرد...<sup>16</sup>.

وكان من بين المسائل المتعلقة بعلم الأصوات التي ذكرها (الجاحظ) في (البيان والتبيين) تعريفه للصوت وكذا عرضه لعيوب النطق التي تدرس حديثاً في فرع مستقل يعرف بـ "أمراض الكلام" وهو فرع مستقل وهو موضوع "علم الأصوات التصحيحي".

ومن بين المسائل التي عرضها الرماني نذكر باب التلاؤم<sup>17</sup>، وباب الفواصل<sup>18</sup>، وكان في مقدمة ما توصل إليه علماء البلاغة في القرن الخامس تلك النظرية التي تعرف عندهم بـ "نظرية الفصاحة في اللفظ المفرد" وهذه النظرية لها جذور في (سر صناعة الإعراب) لابن جني.

### 5-مدرسة اللغويين الصوتية:

ظهر في القرن الرابع للهجرة عالم تفتن في دراسة أصوات العربية حتى بدا كالعالم البصير المتخصص ونعني بهذا (ابن جني ت 392 هـ)<sup>19</sup>، في كتابه (سر الصناعة)، الذي خصصه لدراسة أحكام أصوات العربية، وهو يخرج فيه -في كثير من الأحيان- عمّا يمكن أن يكون من صميم الدراسات الصوتية بالمعنى الحديث للمصطلح، إلا أنّ هذه السمة نجدها تغلب على جلّ المؤلفات القديمة، لكن ظاهرة الاستطرد هذه ما كانت لتسلبه صفة التفرّد والتميّز عن غيره من المؤلفات المعاصرة له.<sup>20</sup>

وقد تضمن (سر الصناعة) مباحث متنوعة تناولت الصوت من الناحية العضوية والناحية الوظيفية، وتظهر عبقرية (ابن جني) عند وصفه جهاز النطق عند الإنسان، وتشبيهه الحلق بألة العود والناي، والموازنة التي قدّمها بين الكيفية التي يسير فيها الهواء في كلّ منهما، وحديثاً أكّد علماء الأصوات بفضل التقنية الجديدة وجود علاقة مشابهة بين جهاز النطق الإنساني والآلة الموسيقية، بل يرون أنّه أكمل آلة موسيقية من حيث المرونة، ومن حيث القدرة على إخراج أنواع من الأصوات لا حدّ لها.<sup>21</sup> لقد تتبّع (ابن جني) الحروف في مخارجها، ورتبها ونظّمها على مقاطع مستفيداً مما ابتكره الخليل، إلا أنّه كان مخالفاً له في الترتيب، وموافقاً لسببويه في الأغلب إلا في مقام تقديم الهاء على الألف، وتسلسل حروف الصفير<sup>22</sup> وقد يكون

تقدّم الهاء على الألف من عمل النساخ، لأنّ (ابن جني) - وهو أقرب إلى عصر (سيبويه) من النساخ المتأخرين- فالألف مقدمة على الهاء عند سيبويه، وإن حروف الصفير وهي (الزاي، والسين، والصاد) من مخرج واحد فلا يتقدّم أحدها على الآخر، فلم يبال بالتقديم والتأخير بينها لذلك<sup>23</sup> وقد يكون (ابن جني) رأى ما لا يراه (سيبويه) إذ نجده في ترتيبه للمخارج يذكر مخرج النون، ثم مخرج الراء، في حين نجده في ترتيبه حروف المعجم يجعل الراء أولاً. هذا الترتيب للمخارج لا يختلف عن ذلك الذي أثبتته (سيبويه) في (الكتاب) وهو الترتيب الذي يراه (ابن جني) صحيحاً، في حين يرى في الترتيب المرويّ عن (الخليل) في معجمه خطأ واضطراب، مدحضا آراء أولئك الذين خالفوا ترتيب (سيبويه) (كالأخفش) الذي يرى بأنّ للألف والهاء مخرجاً واحداً، مثبتاً أنّ الهاء تأتي بعد الألف في الترتيب<sup>24</sup>.

وضمن "المقدمة الصوتية" التي عرض فيها مسائل تدخل ضمن علم الأصوات العام، ثم عدّد أصوات العربية، ورتّبها بالنظر إلى مخارجها، والصفات التي ينفرد بها كلّ صوت عن غيره من الأصوات، ثم درس بالتفصيل كلّ صوت على حده حسب الترتيب الألفبائي. وهذه الدراسة الدقيقة مكنته من إعطاء تفسيرات علمية دقيقة للإدغام، والإمالة، والوقف، والمماثلة، والتنافر، وبعض الظواهر التي تصيب الأصوات في مدرج الكلام، وهي دراسة يعدّها بعض المحدّثين أساساً لما تواضع عليه الأوربيون باسم الفونولوجيا<sup>25</sup>.

إنّ مجهودات (ابن جني) الصوتية لم تنحصر في (سرّ الصناعة) بل له إشارات وآراء صوتية ذات قيمة عالية في (الخصائص) و(المحتسب)، لذا يجمع معظم الدارسين على أنّ (ابن جني) "نهض... بأعباء الصوت اللغوي بما يصح أن نطلق عليه اسم الفكر الصوتي إذ تجاوز مرحلة البناء والتأسيس إلى مرحلة التأصيل والنظرية، فقد تمحّض لقضية الأصوات في كتابه (سرّ صناعة الإعراب) ممّا جعله في عداد المبدعين، وخطّط لموضوعات الصوت ممّا اعتبر من المؤصلين"<sup>26</sup>، فالمنهج الذي اتبعه (ابن جني) انفراد ببعض المزايا منها:

- تخصيص مؤلف للدراسات الصوتية، التي كانت تدرس ضمن مباحث الإدغام<sup>27</sup>.

- أتباع منهج خاص في البحث الصوتي " يضم تتبع الحروف من مخارجها وترتيبها على مقاطع، وإضافته ستة أحرف مستحسنة<sup>28</sup> إلى حروف المعجم، وثمانية أحرف فرعية مستقبحة<sup>29</sup>، ويحصر المخارج في ستة عشر مخرجا تشريحا منظرا له بأمثلته، هذا ما يجعلنا نرى أنّ محتوى (سرّ الصناعة) غالبا ما هو جديد بالرغم من أنّنا نجده في كثير من الأحيان يعتمد على آراء سابقه في مقدمتهم (الخليل) و(سيبويه) وأستاذه (أبي علي)، لكن هذا لا يمنعه من تصويب رأي أحدهما، أو تخريجه على غير ما رأيا، وهما الأستاذان المجلدان، من ذلك قوله في ترتيب (سيبويه) للأصوات: "وكذا قوله عن رأي أبي علي في مرتبة الحركة من الحرف هي قبله أم معه أم بعده:" واستدلّ أبو علي على أنّ الحركة تحدث مع الحرف وهو مذهب سيبويه بأنّ النون الساكنة إذا تحركت زالت عن الخياشيم إلى الفم، وكذلك الألف إذا تحركت انقلبت همزة، فدلّ ذلك عنده على أنّ الحركة تحدث مع الحرف، وهو لعمرى استدلال قوي، وقد ذكرت في كتاب الخصائص فساد هذا القول عن أبي علي.<sup>30</sup>

بعد عرضنا لبعض مميّزات البحث الصوتي عند اللغويين الذين يمثلهم (ابن جني) ننتقل إلى الحديث عن مدرسة الفلاسفة والأطباء العرب الصوتية.

#### 6-مدرسة الفلاسفة والأطباء العرب الصوتية:

درس الفلاسفة والأطباء العرب القدماء جهاز النطق دراسة تشريحية دقيقة، وكان أبرزهم أبو نصر محمد الفارابي (ت339هـ)، وإخوان الصفا في رسائلهم (عاشوا في القرن الرابع)، ومن علماء القرن الخامس وهو الطبيب الفيلسوف (ابن سينا) (370-428هـ) تعرض لعلم الأصوات في بعض ما ألف نحو: (رسالة في أسباب حدوث الحروف)، و(القانون في الطب)، وبعض أبواب (الشفاء)، وكتاب (الموسيقى الكبير)، والمطلّع على هذه المؤلفات يستنتج أنّ الأطباء والفلاسفة العرب القدماء قد عرفوا معظم أعضاء جهاز النطق ووصفوها وصفا دقيقا، بالاستعانة بوسائل محدودة جدّا لم تمكّنهم من الاهتداء إلى

اكتشاف الوترين الصوتيين، ويمكن أن نعتذر لهم لأنّ هذين الوترين غير مرئيين مع عدم توقّره على الآلات الدقيقة التي تستخدم في اكتشافهما.

لقد أبدع (ابن سينا) في رسالته "رسالة في أسباب حدوث الحروف" وقد كان متمرساً فيها بالإشارات الصوتية وتمييزها في الأسماع، وتحديث عن مخارج الأصوات وعضاريف الحنجرة، وعرض للفمّ واللسان تشريحياً وطبياً وتركيبياً، وعني عناية خاصّة بترتيب مخارج الصوت العربي مقارنة باللغات الأخرى<sup>31</sup> بحسب تركيب أجهزة الصوت الإنساني، وبحث مميّزات الحرف العربي صوتياً<sup>32</sup> عدد فصولها ستة هي:

- الفصل الأول: في سبب حدوث الصوت. (وهي دراسة فيزيائية للصوت).
- الفصل الثاني: في سبب حدوث الحرف (فيه تمييز للصوت فيزيائياً من الصوت اللغوي أي الحرف).
- الفصل الثالث: في تشريح الحنجرة واللسان (يعرفنا فيه بمعظم أقسام هذين العضوين).
- الفصل الرابع: في الأسباب الجزئية لحرف حرف من حروف العرب. (كيفية حدوث الأصوات اللغوية في اللغة العربية).
- الفصل الخامس: في الحروف الشبيهة بهذه الحروف وليست في لغة العرب. (عرض لأصوات أعجمية وهي شبيهة بأصوات العربية).
- الفصل السادس: في أنّ هذه الحروف من الحركات غير النطقية تسمع. كانت هذه فصول الرسالة، والمتصحّح لبعض مؤلفات (ابن سينا) يجد التميّز في البحث منهجاً ومحتوى.

#### 7-مدرسة القراء ومجدي القرآن الصوتية:

هي أول مدرسة اهتمت بالجانب التطبيقي للأصوات، إذ يمكن أن نقول بأنّها ظهرت بنزول الوحي على الرسول -صلى الله عليه وسلم- الذي حرص على إبلاغ الصحابة بما ينزل عليه من

الآيات، وتعليمهم إياها فور نزولها<sup>33</sup> امتثالاً لأمره الله جلّ وعلا: "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ" (المائدة 67)، وقد شرع الله تعالى لقراءة القرآن صفة معينة وكيفية ثابتة، بيّنها لرسوله عليه الصلاة والسلام فقال مخاطباً إياه: "وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً" (سورة المزمل الآية 4).

وصفة الترتيل لا تتحقق إلا "بالمحافظة على أحكام التجويد المستمدة من قراءة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والتي ثبتت عنه بالتواتر والأحاديث الصحيحة.

والقراءات القرآنية هي وجوه للأداء الشفهي للمصحف الشريف، وهي وجوه لغوية إعرابية أو صرفية أو دلالية أو صوتية، لكنّ القراءات تبقى وجوها صوتية كاملة لاعتمادها على النطق المجرد والسمع الدقيق والتلقي الصحيح<sup>34</sup>، فيقع الاهتمام بالدرجة الأولى على الكلمة بنطقها نطقاً سليماً، وإعطاء كلّ صوت حقّه مخرجاً وصفة، مثلما يتمّ التنبيه على بعض الكلمات التي لها صور مختلفة من النطق، لذا فإنّ المصطلحات الصوتية التي عرفتها الدراسات القرآنية كثيرة نذكر منها:

- (الفاصلة)، والتي أطلقوها على آخر كلمة في الآية كالفافية في الشعر، وهي قرينة السجع في النثر عند أغلبهم، ماعداً أبي عمرو الداني (ت 444 هـ) الذي اعتبرها كلمة آخر الجملة<sup>35</sup>، إذ قد تشتمل الآية الواحدة على عدة جمل، وليست كلمة آخر الجملة فاصلة لها، بل الفاصلة آخر كلمة في الآية، ليعرف بعدها بدء الآية الجديدة بتمام الآية السابقة لها.<sup>36</sup> والفاصلة القرآنية تؤدي مهمة لفظية معنوية في وقت واحد، إنّها مهمة فنية خالصة، لها أثرها البلاغي والدلالي، "ورعايتها تؤدي إلى تقديم عنصر أو تأخيرها، ليس رعاية للتناسق الصوتي فقط، بل رعاية للمعنى أيضاً، وهذا هو الإعجاز الصوتي"<sup>37</sup>.  
- مسألة تنافر الحروف، يحصل التنافر بين حالتين مختلفتين إمّا البعد الشديد أو القرب الشديد وهو الرأي الذي وضّحه (الرماني) بقوله: "وذلك أنّه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشي المقيد، لأنّه بمنزلة رفع اللسان وردّه إلى

مكانه<sup>38</sup>، وقد يحصل التنافر في قرب المخارج فقط وهو ما يذهب إليه ابن سنان الخفاجي (ت 466 هـ)<sup>39</sup>.

- الإدغام، وهو عندهم: " اللفظ بحرفين حرفا كالثاني مشددا، وينقسم إلى كبير وصغير، فالكبير ما كان أول الحرفين متحركا، سواء كانا مثلين أم جنسين، أم متقاربين، وسمي كبيرا لكثرة وقوعه، ووجهه: طلب التحقيق.

والإدغام الصغير: ما كان الحرف الأول فيه ساكنا، وهو واجب وممتنع وجائز، والذي جرت عادة القراء بذكره هو الجائز<sup>40</sup>، ومن القراء القائلين بالإدغام (أبو عمرو بن العلاء ت 154 هـ)، وإليه ينسب القول المشهور: " الإدغام كلام العرب الذي يجري على ألسنتها ولا يحسنون غيره"<sup>41</sup>، وهو عندهم نوعان: إدغام بين المتماثلين، وإدغام بين المتقاربين والمتجانسين، وقد ألحق القراء في هذا المبحث أحكام النون الساكنة والتنوين من وجه لأن لهما أربعة أحكام<sup>42</sup>.

- أحكام الميم الساكنة، ولها ثلاثة أحكام هي الإظهار والإدغام والإخفاء.

- أحكام الميم والنون المشدّتين.

- درسوا مخارج أصوات العربية وقسموها إلى مخارج عامة ومخارج خاصة، وقسموا الصفات إلى صفات ذاتية وأخرى عرضية<sup>43</sup>، وقسموا الأولى إلى قسمين قسم له أضداد وآخر لا أضداد له.

- درسوا المدّ وقسموه إلى أصلي وفرعي وجعلوا له أنواعا هي: المدّ الطبيعي، والبدل، والعوض، والصلة، والمتصل، والمنفصل، والعارض للسكون، واللين، والمدّ اللازم، ومدّ التمكين، ومدّ الفرق الاستفهامي. واعتنوا ببيان الثابت والمحذوف من حروف المدّ وقفا ووصلا، ونطقا ورسمًا، تبعًا للرسم العثماني، وهو الرسم الواجب إتباعه شرعا.

- وتعرضوا لمختلف حالات اللامات والراءات من حيث التفخيم والترقيق، مثلما درسوا تاءات التأنيث، والوقف عليها مبسوطا أو مربوطة، وكذا هاء الكناية<sup>44</sup>.

- المقطوع والموصول وكيفية الوقف عليهما.

- كيفية نطق الكلمات التي تكتب بشكل، وتقرأ بشكل آخر.

ومن الظواهر الصوتية نذكر الفتح والإمالة "وهما لغتان مشهورتان، فاشيتان على السنة الفصحاء من العرب الذين نزل القرآن بلغتهم: فالفتح لغة أهل الحجاز، والإمالة لغة عامة أهل نجد من تميم وأسد وقيس."<sup>45</sup> والإمالة عندهم قسمان، شديدة ومتوسطة، وكلاهما جائز في القراءة، وقد تحدّثوا عنها من خمسة أوجه: أسبابها وهي عشرة، ووجوهها وهي أربعة، وفائدتها وتمثل في سهولة اللفظ ذلك أنّ اللسان يرتفع بالفتح وينحدر بالإمالة والانحدار أخفّ على اللسان من الارتفاع، وأما من فتح من القراء فيكون قد راعى كون الفتح أمتن أو هو الأصل، ونظروا أيضا فيمن يميل وهم كلّ القراء العشرة إلا ابن كثير، فإنّه لم يمل شيئا في جميع القرآن، وتحدّثوا عما يمال<sup>46</sup> وهو ما فصلوا فيه القول وقد أضاف على ذلك القول علماء الأصوات المحدثون.

وكان من الظواهر الصوتية التي استأثرت بدراسة الكثير من القراء وقد ألفوا فيها كتباً قيّمة ضاع معظمها "الهمز"، وكانت قبيلة قريش وأهل الحجاز جميعا أكثر القبائل العربية تخفيفا، وللهمز أحكام عديدة منها.<sup>47</sup>

كانت هذه الموضوعات المنبع الذي استقى منه علماء اللغة والنحو "مما سجّل للعرب في لغة القرآن أسبقية الكشف العلمي، والتوصل إلى النتائج التي تواضعت عليها اليوم حركة الأصواتيين العالمية، بعد المرور بتجربة المعادلات الكاشفة، والأجهزة الفيزيولوجية المتطورة التي أكدت صحة المعلومات الهائلة التي ابتكرها العرب في هذا الميدان"<sup>48</sup>، مما يؤكد أصالة البحث الصوتي عند العرب، الذي يؤرخ له بأعمال علماء القراءات (كابن مجاهد ت 324هـ) و(أبي عمرو الداني ت 444هـ) و(أبي علي الفارسي) (ت 377هـ) الذين كانت الدراسة الصوتية عندهم مرتبطة بالقرآن الكريم، وبذلك وضعت الأسس الأولى لعلم الأصوات العربي إلى أن استوى ناضجا بفضل جهود علماء القراءات والتجويد ممّن ذكرنا، وبعض النحاة من أمثال (سيبويه)، و(المبرد) و(الزجاجي)، و(ابن جني)، وبعد هذه الدراسة تأكد لنا أنّ أول اتجاهات الدرس الصوتي قادها جيل من

القراء فهم أول من اشتغل بالمسائل الصوتية عملياً. ثم تناوله في المرحلة الموالية اللغويون والنحاة أمثال (الخليل) في معجم (العين) و(سيبويه) في (الكتاب) وهنا قد يعترض بعضهم على قولنا هذا لأنّ علم التجويد ظهر في القرن الرابع عند (ابن مجاهد ت324 هـ) و(أبي مزاحم الخاقاني ت325 هـ) لكنّه اعتراض مرفوض لأنّ هذا الظهور سبقته إرهاصات حتى بدا منظماً بعد أن تطاول العهد بالناس في الفترة التي بدأت السليقة فيها تتلاشى وابتعد الناس عن حسن التلقّي.

إنّ رؤية أبي مزاحم الخاقاني تعدّ فاتحة المؤلفات الصوتية لعلماء التجويد، وقد لاقت من الاستحسان والاهتمام ما جعلها مصدراً ينهل منه اللاحقون، منهم مكي بن أبي طالب القيسي في كتابه (الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة)، وهو مثلما جاء في مقدمته أول كتاب مصنّف في هذا العلم، ثمّ تلاه في الظهور كتاب (التمهيد لأبي عمرو الداني)، ومصنّفات أخرى في الباب نفسه.

والذي يذهب إليه بعض الدارسين أنّ علماء التجويد اعتمدوا على مصنّفات اللغويين والنحاة في مؤلفاتهم، وأضافوا إليها حتى بلغ علم التجويد منزلة عالية من التقدّم. وكان هدف علماء التجويد من دراسة الأصوات "معالجة ما سموه اللحن الخفيّ، فقد قسّموا اللّحن إلى قسمين: اللحن الجليّ، وهو الخطأ الظاهر في الحركات خاصة، وقالوا بأنّه ميدان عمل النحاة والصرفيين، واللحن الخفيّ وهو الخلل الذي يطرأ على الأصوات من جراء عدم توفيتها حقوقها من المخارج أو الصفات أو ما يطرأ لها من الأحكام عند تركيبها في الكلام المنطوق"<sup>49</sup>.

وكان منهجهم في دراسة الأصوات منهجاً تعليمياً شاملاً يعتمد على مشافهة الشيخ وذلك اعتماداً على أمور أربعة هي<sup>50</sup>:

- 1- معرفة مخارج الحروف الأصلية والفرعية.
- 2- معرفة صفات الحروف الأحادية والثنائية.
- 3- معرفة ما يتجدّد لها بسبب التّركيب بين مختلف الأصوات من الأحكام.

4- معرفة رياضة اللسان بذلك وكثرة التكرار.

ثم تطوّر هذا المنهج بحيث نجد المتأخّرين من علماء التجويد يعرضون في مصنفاتهم مسائل جديدة منها:

تقديم رسم تخطيطي لبعض أعضاء النطق حيث ظهر هذا التقليد لأول مرة عند النحاة (السكاكي ت 626هـ) في كتابه (مفتاح العلوم)، وظهر عند علماء التجويد أيضا عند (ابن وثيق الأندلسي ت 654هـ) الذي عاصره.

1- الحديث عن أعضاء جهاز النطق، إذ نجد المتقدمين يركّزون على مخارج الحروف وأثناء ذلك يذكرون بعض الأعضاء.

2- تخصيص فصل من الكتاب للحديث عن عضو واحد من أعضاء النطق مثلما فعل المرعشي (ت 1150هـ) في كتابه (جهد المقلّ) حيث خصص الفصل الرابع منه للحديث عن الأسنان.

3- الحديث عن عيوب النطق.

4- الاستعانة بعلم التشريح، فلولا الاستعانة به لما توصلوا لمعظم الأعضاء الظاهرة منها وغير الظاهرة المشاركة في إحداث الأصوات.

كانت هذه بعض الخصائص التي تفرّد بها علم الأصوات عند مجيدي القرآن الكريم، وهي خصائص تظهر لنا التفرّد في المنهج والاجتهاد في الإتيان بالجديد ما جعل هذا العلم يكاد يضيء علم الأصوات الحديث الذي يتوسّل بأحدث الأجهزة.

### الخاتمة:

مما تقدّم نقول بأنّ للدرس الصوتي العربي أصلا انبثق منهما بعد أن توافرت له بعض الأسباب وهذان الأصلا "هما اللغة ومعارفها، والقراءات القرآنية ووجوهها الصوتية"<sup>51</sup>. وأنّ النظرية الصوتية العربية اتمتت منهجا ومادة بفضل تضافر جهود علماء عرب معجميين ولغويين ونحاة وفلاسفة وأطباء وقراء ومجيدي القرآن الكريم امتدّت لقرون، وقد استأثر

الجانب الفيزيولوجي دون غيره من الجوانب الأخرى بالبحث والدراسة إلى القرن الخامس الهجري حيث طغى على الدراسة الاتجاه العلمي.

### قائمة المصادر والمراجع:

- أحمد محمد قدور: اللسانيات وأفاق الدرس اللغوي، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2001
- ابن الجزري الحافظ أبو الخير محمد بن محمد دمشقي (ت 833 هـ): النشر في القراءات العشر، تصحيح ومراجعة: علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، د. ت.
- ابن جني: سر صناعة الإعراب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421 هـ 2000
- ابن سنان الخفاجي أبو محمد: سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1402 هـ / 1982 م
- الخليل: العين، تحقيق مهدي المخزومي، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، 1980.
- الداني أبو عمرو عثمان بن سعيد ت 444 هـ: المحكم في نقط المصحف، عني بتحقيقه: حسن عزّة، دمشق، 1960
- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني، والخطابي، وعبد القاهر الجرجاني: حققها وعلّق عليها: محمد خلف الله، زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط2، 1968
- حسام النعيمي: الدراسات الصوتية واللهجية عند ابن جني منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية.
- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1988

- سيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر (ت180هـ): الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1408هـ.

- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) (849هـ-911هـ): الإتقان، حَقَّقه وعلَّق عليه وخرَّج أحاديثه: فواز أحمد زمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 2001

- عصام نور الدين: علم وظائف الأصوات اللغوية، الفونولوجيا، دار الفكر اللبناني، ط1، 1992

- عطية قابل نصر: غاية المرید في علم التجويد، دار التقوى للنشر والتوزيع، ط7.

- علاء جبر محمد: المدارس الصوتية عند العرب النشأة والتطور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2006.

- غانم قدوري الحمد: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، دار عمان، ط2، 2007

- محمد حسين علي الصغير: الصوت اللغوي في القرآن، دار المريخ العربي، بيروت، لبنان.

- محمد محمد داود: العربية وعلم اللغة الحديث دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001.

- محمود السعران: علم اللغة دار الفكر العربي، القاهرة.

Abdelkader Mehiri: Les théories grammaticales d'Ibn Ginni; Publication de l'université de Tnis; 19763

1 - أحمد محمد قدور: اللسانيات وأفاق الدرس اللغوي ص 64

2 - عصام نور الدين: علم وظائف الأصوات اللغوية، الفونولوجيا، ص 161

- 3- الداني: المحكم في نقط المصحف، عني بتحقيقه: حسن عزة، دمشق، 1960، ص 4
- 4 - ينظر: الداني: المحكم في نقط المصحف ص 6
- 5 - علاء جبر محمد: المدارس الصوتية عند العرب النشأة والتطور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 2006، ص 20
- 6 - ينظر: الخليل: العين، تحقيق مهدي المخزومي، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، 1980، 57/1
- 7 - عصام نور الدين: علم وظائف الأصوات ص 162-163
- 8 - الخليل: معجم العين 52/1
- 9 -- الخليل: معجم العين 59/1
- 10 - سيويه عمرو بن عثمان بن قنبر (ت 180هـ): الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 3، 1408هـ، 434/4
- 11 - م. نفسه 437/4
- 12 - محمد حسين علي الصغير: الصوت اللغوي في القرآن، دار المريح العربي، بيروت، لبنان، ص 53
- 13 - م.ن ص 53
- 14 - ينظر: م.ن ص 62
- 15 - نشير إلى أن العلماء جعلوا الكلام مراتب ثلاث.
- 16 - محمد حسين علي الصغير: الصوت اللغوي في القرآن ص 78
- 17 - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص 94
- 18 - م. نفسه ص 97
- 19 - هو أبو الفتح عثمان بن جني له بصمات صوتية قوية، وبحث غزير في اللغة تتلمذ على أبي علي الفارسي وتذكر المصادر بأنه لزم أستاذه أربعين سنة لم يفارقه فيها.
- 20 - Abdelkader Mehiri: Les théories grammaticales d'Ibn Ginni; Publication de l'université de Tunis; 19763 p76
- 21 - ينظر: محمود السعران: علم اللغة ص 98
- 22 - ينظر سيويه: الكتاب 404/2 وكذلك: ابن جني: سر الصناعة، 45/1
- 23 - حسام النعيمي: الدراسات الصوتية واللهجية عند ابن جني ص 301
- 24 - ينظر: ابن جني: سر صناعة الإعراب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1421هـ 2000م 60/1
- 25 - ينظر: محمد حسين علي الصغير: الصوت اللغوي في القرآن ص 62
- 26 - محمد حسين علي الصغير: الصوت اللغوي في القرآن ص 56

- 27- وأول ما ظهر التخصص في العلوم الإسلامية، وكان ابن عباس رضي الله عنهما هو أول من قام بهذا حينما كثر المتجمعون عند بابيه من رواد العلم والمستفسرين، فخصّص لكل فرع علمي يوماً.
- 28- ابن جني: سر الصناعة 48/1
- 29- م. ن 51/1
- 30- ابن جني: سر صناعة الإعراب 33-32/1
- 31- ينظر الفصل الخامس من رسالة في أسباب حدوث الحروف الذي عنوانه: في الحروف الشبيهة بهذه الحروف وليست في لغة العرب.
- 32- محمد حسين علي الصغير: الصوت اللغوي في القرآن ص78
- 33- عطية قابل نصر: غاية المريد في علم التجويد، دار التقوى للنشر والتوزيع، ط7، ص12
- 34- أحمد محمد قدور: اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي ص65
- 35- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، 53/1
- 36- محمد حسين علي الصغير: الصوت اللغوي في القرآن ص143
- 37- محمد محمد داود: العربية وعلم اللغة الحديث ص28
- 38- ثلاث رسائل في إيجاز القرآن للرماني، والخطابي، وعبد القاهر الجرجاني: حققها وعلّق عليها: محمد 38 خلف الله، زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط2، 1968، ص95
- 39- ينظر: ابن سنان الخفاجي أبو محمد: سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1402هـ/1982م، ص99
- 40- السيوطي: الإتقان، 310/1
- 41- ابن الجزري: النشر، 275/1
- 42- م. ن، ص130
- فالذاتية هي الصفة الملازمة للحرف بمعنى أنها لا تفارقه أبداً كالقلقلة والشدة، والعرضية: وهي 43 الصفة التي تلحق الحرف أحيانا وتفارقه أحيانا أخرى كالتفخيم، والترقيق.
- 44- لهاء الكناية أربع حالات ينظر: السيوطي: الإتقان، 200/1
- 45- السيوطي: الإتقان، 299/1
- 46- ينظر: السيوطي: الإتقان، 301/1
- 47- ينظر: السيوطي: الإتقان، 321/1
- 48- محمد حسين علي الصغير: الصوت اللغوي في القرآن، ص78
- 49- غانم قدوري الحمد: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، دار عمان، ط2، 2007، ص48
- 50- ينظر م. ن ص57
- 51- أحمد محمد قدور: اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي ص64

